

القوّالي.. موسيقى صوفية وترانيم دينية تدعوا للتسامح وحبّ الخالق

كتبه غيداء أبو خيران | 25 أبريل, 2018



مستمدًّا اسمها من الكلمة العربية "قوّال"، أي كثير القول، ظهرت "القوّالي" كشكلٍ من أشكال الموسيقى الدينية الصوفية في جنوب آسيا، خاصةً في الهند، قبل ما يقارب 700 عام من يومنا هذا، على يد الشاعر الهندي "أمير خسرو" الذي كان يلقب بعنديب الهند، حاملاً معه العديد من المعاني الصوفية السامية والرسائل الملحمة والابتهاجات الدينية الإسلامية التي تدعوا إلى التسامح وحب الخالق.

وازدادت بسرعة أهمية موسيقى القوّالي في الهند التي أصبحت في العصور الإسلامية الوسطى مهد الفنون الفارسية؛ وفي تلك الأيام تأثر الكثيرون من الهندوس بأغاني أمير خسرو بحيث أُنتموا إلى الإسلام كما تروي الكتب التاريخية. واليوم تشكّل موسيقى القوّالي جزءاً مهماً في حياة المسلمين الدينية في جنوب آسيا والذين يزيد عددهم عن ثلاثة وخمسين مليون شخص. ولا يكاد يوجد مزار صوفي في الهند أو باكستان لا تُعزف فيه أغان من مخزون موسيقى القوّالي.

ظهرت موسيقى القوّالي الصوفية في الهند قبل ما يقارب الـ700 عام على يد

وكنوع موسيقى فريد، ترتبط موسيقى "القوالي" ارتباطاً وثيقاً بالتقاليد الكلاسيكية الهندوستانية لشبه القارة الآسيوية في أطراها اللحنية وارتجالاتها الصوتية المرنّة والمنفردة، ويعتمد فيها المغنون على مجموعة من مئات الأغاني التي كُتبت بشكلٍ رئيسي باللغة الأوردية أو البنجابية، إضافةً للقليل منها مما كُتب بالعربية والتركية والفارسية.

كما تمتاز موسيقى القوالي بتنوع إيقاعاتها الموسيقية، وتردد الفرق المؤدية له أبياتاً من قصائد شعراء صوفيين مثل جلال الدين الرومي وغيره، وهذه القصائد مدح لله وللنبي وللأولياء الصالحين، وهي تعبر أيضاً عن شوق ومحبة المريد وحرقه، وتحمل في داخلها ألم الفراق وفرحة التوحد مع الإلهي، وتكون ممزوجة بآيات دينية محلية، ما يثير حسّ النشدين القدامى الموسيقية بنبرات صوفية متنوعة ومختلفة.

ومع أنّ للقوالي قوانينه وكلماته وانغاماته وأدواته التقليدية التي وضعّت قبل سبعة قرون، إلا إنّ بعض رواده قد أدخلوا فيه تعبيراتهم وألحانهم وأساليبهم الحديثة، ليؤثر على الناس أكثر ويشدّ انتباهم ويحفّزهم لسماعه. كما كان في بداياته محصوراً فقط في الزيارات الصوفية ودور العبادة ومقتصرًا على الرجال دون غيرهم، لكنه ما لبث أن تحرر من قيود الحضور وبات له جمهوره النسوي، عوضاً عن اتساع مساحاته من مهرجانات وحفلات الزفاف والأحداث الثقافية وما إلى ذلك.

الهدف من موسيقى القوالي وحفلاتها وأغانيها هو الوصول بالمستمعين إلى
حالة من التنّزه والسموّ والهياقن بالذات الإلهية

عادةً ما يتم تأدية "القوالي" عن طريق مغنٍ من خلفه الكورال، يلعبون جميعهم بأسلوب القرار والجواب، ويستخدمون آلات الإيقاع أو الطبول أو السيتار، وهي آلة موسيقية وترية طويلة هندية شبيهة بالعود، يرجع تاريخها إلى القرون الوسطى وقام المغول بإضافة التعديلات عليها بحيث تصبح أقرب للآلات العودية الفارسية والشرقية. وفي الفترة الحديثة، أدخلت آلية الأورغان ذات لوحة المفاتيح الشبيهة بالبيانو، إلى موسيقى القوالي، حقّ بات البعض يستعيض بها عن آلة السيتار.

بالعادة تستمر حفلة القوالي لعدة ساعات دون انقطاع، دون أن ترُكز على مادة ثابتة للغناء أو الأداء أو أن تلتزم بخطة محددة، فالهدف بالنهاية هو الوصول بالمستمعين إلى حالة من التنّزه والسموّ والهياقن بالذات الإلهية الأمر الذي يتطلب انقطاعاً كلّياً عن الحياة والأرض، والتسامي نحو السماء والروح.

نصرت علي خان: غَلَم القَوَالِي الأَشْرَر وموسيقار الحوار بين الأديان



يعدُّ "نصرت علي خان" ووالده فاتح من أبرز رواد هذا الفن، حيث كانا ينتميان لعائلة حافظت على تقاليد هذا الفن لأكثر من 600 عامٍ على التوالي، ويعود لنصرت الفضل في تقديم هذا الشكل من الموسيقى للجمهور الدولي في أواخر القرن العشرين بعد بدء إصداره وفرقته للعديد من الألبومات التي لاقت رواجاً هائلاً، ما دعم أيضاً تقديمهم للعرض المباشر في مهرجانات الموسيقى الدولية.

ولد نصرت فاتح علي خان في عام 1948 في مدينة ليالبور التي تُعرف في يومنا هذا باسم "فيصل آباد"، بعد عامٍ واحدٍ فقط من خروج وطنه باكستان من مخاض كفاحها من أجل الاستقلال عن الهند. وكان ظهوره العلني الأول وهو في سنّ السادسة عشر بعد وفاة والده. وفي الذكرى الأربعين لوفاة والده غَّى على ضريح أبيه. وقد نُقل عنه قوله: "عندما أبدأ الغناء فإنني أغيب في موسيقاي ولا يبقى شيء غير هذه الغيبة".

وبدئاً من العام 1971 انتشرت شهرة "نصرت علي خان" في باكستان والهند، ووصلت بعد فترة قصيرة إلى المسارح الدولية؛ بعد أن قام بأول جولاته الموسيقية في مطلع الثمانينيات في إنكلترا والدول الإسكندنافية، حيث قدم موسيقاً بصورة رئيسية أمام الجمهور الباكستاني في المهرجان.

النسبة لنصرت فقد كانت موسيقى القوالي حسب التقاليد الصوفية سبيلاً إلى الله، وإلى معرفة النفس

وفي الأعوام اللاحقة غَّى نصرت بالاشراك مع موسقيين غربيين مثل بيتر غابرييل وإدي فيدر، وكان يركِّز على المهرجانات الموسيقية العالمية ويحاول المساهمة في بعض مشاريع الانصهار ويسجّل بعض القطوعات الموسيقية التصويرية لأعمال سينمائية من إنتاج هوليوود، وهكذا أصبحت للمرة الأولى موسيقى القوالي معروفة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

بالنسبة لنُصرت فقد كانت موسيقى القوالي حسب التقاليد الصوفية سبيلاً إلى الله، وبذلك أيضًا إلى معرفة النفس، هذه المعرفة التي كانت تحدث في الحوار ما بين القوالي والمستمعين، على خلاف الموسيقى الشعبية ذات الوتيرة السريعة التي احتك بها نصرت في دول الخارج.

ولو بحثت في الإنترت أو موقع يوتوب، ستجد العشرات من الفيديوهات المصورة لحفلات نصرت، حيث يظهر فيها ذلك الرجل البدين الذي يحيط به أتباعه وكأنه بوذا. ولكن أكثر ما قد يشير انتباهك في تلك الفيديوهات هي تلك النشوة التي يدخل فيها نصرت أثناء غنائه شيئاً فشيئاً، حتى يلتج لغيبوبته التي يعتبرها علامه السموم والوصول.

رابط المقال : <https://www.noonpost.com/23042>